قصة (لولا العناق لبارت قلوبنا)

بقلم الكاتب "كريم جلال"

تتجلى العلاقات عن جنوبنا، فنصبح غارقين في سكرات الفراق، فما الفراق إلا وهلة من اللاحياة، فقد تزداد حتى الممات وقد تنتهي سريعًا بعودة من نحبهم، أو بوجود أناس آخرين اصطنعوا حبنا كما فعل الأولون.

هنا في أرض الفقر، أرض الإنقسام الإجتماعي، هنا في سوريا بين الحروب لا شيء صادق غير الحب.

(١٨ كانون الأول، الساعة العاشرة مساءًا.)

أناس مزعجون، ضوضاء الحرب تعم المكان، أصوات صراخ الأطفال يكاد أن يفتك بأُذني، وحديث النساء يكاد أن يجعلني أهرب إلى أي مكانٍ خالي من البشر حتى وإن كلفني الأمر أن أعيش في نوائي القرىٰ بين المتشردين، أن أترك كل ما لديّ بهذا المكان خوفًا من أن تفارقني روحي إلى أي مكان.

ففي نوائي القرىٰ يسكن المتشردين الهاربين من الحرب والفقر، أما أنا ف كأي شابٍ محدود الحال فليس دافع الهروب هو الفقر بل الخوف من الحرب وما ينتج عنها من ضجيج يشعل برأسي نارًا تحرق كل ما فيها، فأنا أعشق الهدوء لدرجة أنني لا أحتاج لأحد جانبي فما ممرت به من إنعزال جعلني قادر على التعايش بمفردي.

اسمي يعقوب، طالب في كلية الترجمة قسم اللغة الصينية بجامعة حلب لكن كالعادة ما لدي من اللغة كمٌ ضئيلٌ يكاد لا يُذكر في بحور اللغة لسوء التعليم هنا، فـ البلاد لا تعي التعليم بل أهم شأنُها أن

ينتهي كل هذا الضجيج، أن يكف الطرفين عن إطلاق الرصاص، أن يتوقف قتل ما لا ذنب لهم نتيجة خطأ في قصف الغارات.

في عام ١٩٩٩ ميلاديًا، وُجدت أنا بين بشر لا يعلمون للرحمة سبيل، جئت إلى بلدٍ عربيّ ذو فكر عقيم، فنحن العرب بسبب تفرقنا تَعقم إنجاب من يخاف على الوطن، من يفكر في تقدم العرب، وجدت بين أُناسًا لا يعقلون معنى أن يتركوا للفرد مساحته الخاصة دون التدخل في شؤونه، معنى أن يكفوا عن الضوضاء لكيّ يحصل جسدي على قسطٍ من الراحة.

فما أنا به أيامٌ عجاف، وأنا على ثقة بأن كل مُرٍّ سَيمُر، وكل ألمٍ سيلتئم، وكل فشلٍ يتتبعه نجاح، وكل مشقةٍ تليها راحةٌ تُنسي ما مضى، وأن الحروب نهايتها سلام.

الأحد ٢١ من كانون الأول، الساعة الواحدة بعد المنتصف، بين شوارع حلب عامة، في حارة ذو منازل مهدومه خالية من البشر بسبب القذف المتكرر عليهم، أسير وكأني وجدت هنا ملاذًا يجمع شملي، ويُطمئن قلبي بعيدًا عن البشر.

فأذهب هاربًا إليه تاركًا تلك الفتاة التي أُعجبت بها، وذاك الرفيق الذي جاورني لسنين، تلك الغرفة التي تحتوي جميع أمتعتي، وهذا الفناء الذي كان ملكًا لعائلتي منذ قديم الزمان لكن التخلي عن أشياء في سبيل الراحة هو أعظم ما يغنى به الإنسان، فـ وداعًا لكل من تسببوا في رحيلي من ذلك المكان الذي يحمل ذكرياتي بل اللعنة عليكم اللعنة على الحرب وما فعلته بي وليس الوداع.

أسيرٌ بين البيوت المهدومة، متخبط التفكير باحثًا عن مكان أنتكس فيه حتى الصباح، حتى أجهز ما أحتاجه للخروج من الوطن إلى أي مكان يتميز بالهدوء فما تعرضت له يكفي أن يجعلني أُكمل ما تبقى من عمري وحيدًا دون الحاجة لأحد.

وإذ وأنا ذاهب إلى مكان هاديء مكهفر التي كاد الضوء فيه ينعدم، أجد شيخًا ينتكس وكأنه قد ضاقت به الدنيا فلجأ لهذا الرصيف وكأنه ملجأُه، ناكسًا رأسه على الحائط من خلفه، واضعًا أمامه قبعته، وبجانبه لوحته ناثر عليها: أنا رجلٌ كفيف، يحتاج لجبرٍ لطيف، فقد ضاق بيّ الحال، وصرت شحيح الهيئةِ، قليلَ المال، فهل من غنيّ أعطى، أوليس المال مال الله!

فلما إقتربت منه وجدت قبعته لا تحتوي إلا على مبلغٍ قليل وكأنه ينتكس هنا منذ الأُسبوع بعد القصف الذي حلَّ بالمكان، وأن ما لديه لربما مر عابر فأعطاه القليل، ناتبني الإنتكاس بجواره ومعرفة لماذا ينتكس حتى الآن هنا، أقترب خطوة تلوَّ الأخرى وأنا أخاف أن لا يكون بشر، إقتربت وأنا أمزج داخلي شعور الخوف لكن يروادني الفضول، فلما إقتربت وجدته نائم، فما كان مني غير العودة للوراء لكن يا أسفاه أوراق الخريف المتساقطة أصدرت صوت أثناء المرور عليها فأيقظته، نادى بصوتٍ مبحوح هل من أحد هنا؟

- نعم، السلام عليكم شيخي الجميل.
- عليكم السلام من ربِّ التدبير القائل في كتابه العزيز أنه هو الرحمٰن الرٰحيم.

- إناتبني الفضول لأعلم حالك، أشعر وكأن الدنيا ألقت بك في المهالك وأن هذا ليس مكانك، فهنا قد رحل الجميع بسبب الحرب فـ لِمَ أنت هنا بمفردك؟

"قالها الصبي للشيخ والكلام يتعلثم في حنجرته من الخوف."

رد الشيخ بيقينٍ تامٍ ورضىٰ.

- والله ما ألقتني إلا لِتجعلني في الآخرة من المكرمين فالحمد لله ربِّ العالمين، لكن متى رحل الجميع، فكل يوم في هذا الوقت تمر عليّ فتاة حاملة لي الطعام والشراب، وتجلس معي حتى أن تبدأ الشمس في الإشراق ثم تذهب ولا تأتي إلا في مساء اليوم التالي."
- صدق لسانك، والله يا شيخي تغرغرت عيني من حلاوة كلامك، فبالله عليك ضمني إلى صدرك وأخبرني ماذا كنت من قبل، هل كنت غنيًا وأصابك الفقر، أم كنت فقيرًا وتنتظر جزاء الصبر؟" يتحدث الصبي وهو خائف فكيف يأمن المكان من حوله، والديجور يعُم في أنحاء الحارة، وكيف يصدق حديث الشيخ بأن فتاة تمر من هنا هل هذا يعقل أم أن الأرواح المقتولة هنا تظهر ليلًا؟
- يا ولدي والله كنت غنيًا وفقيرًا، غنيًا عن أن أمُدّ يدي لأحدٍ، فقيرًا فما لديّ سوىٰ القليل الذي أناله من عملي، أتعلم أنا أعمل مدرسًا للغة العربية قبل أن يهدم الحرب مكان عملي، ويهدم منزلي، لكن يا أسفاه إشتعل الحرب وضاع العمل وفقد

الأمل في البقاء فكيف أعيش دون المال أوليس هو وسيلة كبرىٰ في العيش.

- واللّٰه العظيم إن كلامك ليحمل عذوبة العزف على أوتار القلوب، وإن إيمانك باللّٰه سبيل لمن أراد أن يتوب.
- جزاك اللّٰه.

إلى أين أنت ذاهبٌ في هذا الوقت، البرد قارص، عليك يا ولدي عد من حيث أتيت، وأذهب إلى ما شئت في الصباح.

يا شيخي، هل للمطرود أن يعود لبلاده!

وهل للمقتول أن يشعر بفؤاده!

وهل للميت أن يعود للحياة!

يا شيخي ضوضاء العالم أزعجتني حتىٰ تركت بيتي راحلًا إلى أيّ مكان هادىء يحتويني، أي مكانٍ خالٍ من البشر، أوليس التخلي عن شيءٍ لسبيل الراحة له أولوية؟ فأنا تخليت عن منزلي لأن ضوضاء البشر هناك تُزعجني.

- يا بنيّ ضوضاء البشر سنة من سنن الحياة، فلما تركت بيتًا يحتويك ونحن نبحث عن كهفٍ يحتوينا؟

أوليس اللّٰه بعادلٍ في توزيع رحمته، أم غلبت الأفكار إيمانك!

يا شابيّ المُدلل عِش حياتك، تأقلم مع من بجوارك حتى لا تبلغ الأربعين فتندم، عِش وتمتع بعمرك فقد تكون الروح الذهابة مبكرًا للقاء ربك.

- -يا شيخي بالله أحببتك في الله فهل تُلبي لي طلبًا بسيطًا!
- سل تُعطى يا ولدي، لكن لا تطلب الكثير فشيخك فقيرٌ لكنه غنيٌّ بالله.
- لا تخشى شيئًا يا شيخي فأنا لا أريد شيئًا سوى أن توافقني بأن نهرب خارج البلاد، فمثلك كان أحق أن يسكنوا قصورًا، أن يظلوا ويسكنوا مناطق خاليةً من الحروب فمثلك يا شيخي يقودوا الأمم، ويعلوا شأنهم في بلاد الغرب، فلما لم تفكر يومًا في الهروب من هنا إلى أي مكان؟
- وماذا عن تلك الرسائل التي أعطيها لأبناء وطني ليرتقوا بعلمهم.
- والله سآخذها أنا وأنشرها في جميع البقاع وبجميع اللغات، حتى يحمل التاريخ إسمك قبل الممات.
- لكن يا بني هنا مهما كانت الحروب توجد نسماتٌ تسكن القلوب، رغم صوت الألغام المتفجرة إلى أن تُزهر الأرض وردًا، فلم نترك الوطن في هذا الوقت، فحقيقة حب الشيء تعرف وقت الشدة وليس الراحة، فالصديق وقت الضيق والوطن هو الصديق فلم أفكر في أن أتركه وقت محنته، رغم أنني لا أستطيع المقاومة في صفوف جيشه إلا أنني أستطيع البقاء هنا، أستطيع التفكير فيما سينهي الحرب.
- لكن سئمت تلك الحياة في هذه البقعة، أود الهروب إلى أي مكان يجعلني ذا شئن، أود سماع أصوات الطيور في الصباح وليس أصوات الأسلحة، فكل يوم أتسائل، هل لي أن أكون ذا منفعةٍ أم سأظل هنا أخشى الخروج، فعمرٌ يزداد وأنا لم أفعل

شيئًا سوى الإنتكاس خوفًا من أن يصيبني طلق السلاح فيبتر شيء مني.

- يا بني بترت عيناي من قصف كيميائي أصاب منزلي، لكن والله أن يبتر منك شيء فداء الوطن لهو خير وأعظم أجر.

وأثناء الحديث وإذ أنا سارحٌ بعقلي في التفكير بـ هل عليّ الرحيل أم أبقى هنا وفقا لرأي شيخي؟

قطع تفكيري صوت فتاة تصرخ عليّ، لما أنت هنا، هل أنت لص، هل تريد أن تأخذ هذا الشيخ للإستفادة منه، أذهب أيها اللص.

- هو ليس لصًا يا عزيزتي بل هو شخص ضاق حاله ولا يعلم إلى أين يذهب..
- سمعت كل شيء لكن.....
- لكن ماذا، هل يبدوا عليّ أنني لص!

هل كل من يتجول في المناطق الخالية لصوص؟

فوالله أنا أتجول هنا لأني سمئت الضجيج وأريد الهدوء.

- سمعت كل شيء، فأنا أجلس خلفكم منذ وقت، سمعت كل شيء، وعلمت مدى حب شيخي للوطن، ومدى كرهك للوطن.
- آسف لكن هذا ليس كرهًا، بل هو أنني أود أن أفعل كل ما تمنيت، وهذا لا يحدث إلا بالخروج من الوطن، فالوطن في صراع لا يعي لي.

- أعلم فأنا مثلك تمامًا وأود الهروب معكم، لكن سمعت أن شيخي لا يود الهروب فـ سأبقى هنا دائمًا معه.
- يا أبنائي إبقوا في الوطن وأعدكم أني سأكون حصنكم.

"الساعة ٤ فجرًا، الشمس على وشك الشروق، وها هي الفتاة سوف ترحل كما أخبرني الشيخ، لكن لا أود رحيلها فوالله شعرت وكأنها هرولت إلى قلبي عندما رأيتها"

- تُصبح على خير مولاي، وأنت تُصبح على خير، آسفه لا أعلم أسمك.
- إسمي يعقوب، وأنت!
- آية، إسمي آية، تصبح على خير يعقوب.
- تصبحين على خير آية، أود أن تأتي غدًا مبكرًا
- بإذن الله.

"مرت الأيام ومرت اللقاءات، وإزدات المحبة بيننا وكأننا أهل، وزاد حبنا لوطننا فهو ميرثنا الوحيد الذي نرثه عن شيخينا"

فكل يوم أثرثر مع روحي كثيرًا عن هل وقعت في حبها، أم أن وحدتي جعلتني أرى كل من يقترب مني محبًا؟

تبًا لعقلي الذي يفهم الأشياء كما يشاء وليس بصورتها الحقيقة.

ليلة الجمعة، ١٨ كانون الآخر.

ذهبت هي قبل إقتراب الشمس، وكأن شيئًا غريبًا قد حدث لها، الساعة الثالثة فجرًا، أصوت شهيق شيخي تزداد وتعلوا، وكأنه يلتهم أنفاسه

ببطىء، الخوف أحاطني وكأني أشعر وكأن أحد جوارنا، يا إلٰهي هل من أحدٍ هنا، عزيزتي آية أين أنتِ هل تُمازحينني، أصرخ مستنقذًا بأحدٍ فشيخي يموت، هل من طبيبٍ هنا، هل من عابرٍ هنا، يا إلٰهي روح شيخي تذهب هل من منقذ، هل منقذ؟

- قم يا لص هل قتلت شيخي، أنا كنت أعرف أنك لص.
- أقسم لكِ ما فعلت شيء وما أتذكر سوى أني حاولت إنقاذه حاولت الإستنجاد بأحدٍ لكن لم يأتي أحد، والله ما أتذكر غير أن آخر كلمات شيخي إرحل من هنا فشبح الموت ينتكس هنا جلى حين أنتهاء الحرب.
- لكن ماذا سنفعل الآن، كيف سنير من غيري شيخي، أنت غبي لم لا تتصل بي فوالله كنت سأتي مهرولة بكل الماء.
- لكن ليس لدي رقم هاتفك، هل نسيتي.

"ذهبنا إلى أي منبع يخرج منه الماء لنغسل جسد سيدنا ونحضر له مراسم الجنازة، صرنا كثير متباعدين وأنا حامل الشيخ على ضهري حتى وصلنا إلى بيتا صنع من قش، توقفت قائل لها هنا سنسطيع تجهيز كل المراسم، ردت بصوت حزين هنا كنت أجلس منذ زمان هنا كنت أعددت له الطعام، بدأت في تغسيل الشيخ وهي بالخارج وصوت بكائها يشق قلبي، وأنهار الدموع تسير على جفني ساقطة أرضًا، كنت أخشى أن تسقط على جسد شيخي فتخترقه من حرارتها، جزهت كل المراسم وبدأنا أنا وهي في حفر مقبرةٍ بجانب البيت وأتمامنا الدفن، ذهبت لأستريح من التفكير خلف صخرة وهي مازالت واقفة على القبر لا تريد أن تدخل إلى المنزل، كان مشهد ركوعها على القبر يمزق قلبي، يفتك بي،

فما كان مني غير أني هرولت إليها لأحضتنها، قائلًا لها: لقد نال منّا كُلُ شيء، وإستنزفت الحياةُ قُوانا بعد رحيل شيخنا، أصبح الموت هو السبيل إلى اللاشيء، اللاشعور، اللاحياة.

فماذا عنّا؟

ولماذا وُجِدنا؟

وهل حتميّةُ الوجود تقترن بالآلام!

أم أن الحياة غفوةٌ من النوم ووجب علينا تتبعها؟

فقد ضاق صدري، وضللت مَذهبي، ولم أجد من يربت على قلبي إلا أنتِ عزيزتي فقد ذهب من كان يربت على قلوبنا، فيا عزيزتي أنا ملجأ لك وأنت ملجيء من ديجِار الحياة، فكم من مفارقين ألقت بهم الدنيا بين أودية التراب كما رحل شيخنا، وكم من محبٍ تناثر قلبه بعد الفراق وكأنه رماد، أ فباللهِ لماذا يحلُّ التضاد بين جميع العلاقات!

فما أحببناه ذهب، فبالله أبقى معي وأنا أعدك أني سأبقى معك، فلم دائما يحل بين جميع العلاقات الافتراق أوليس الحق أن يحلّ الترادف والطرائف!

فواللهِ مُنذ ما فارقنا شيخنا وقد ثار المقاتلين من حولنا ليرهبوا قلوبنا، وإشتعل الحرب اللّعين حولنا، وتحولت الأرض من أرضٍ خصبةٌ إلى بور، فأُقسم بعزة الله أن طرفيّ الحرب كلاهُما مهزوم لا أحد منصور، فقد إزدادت حصيلة الراحلين إلى الطين، وحلّ علينا مناخ شديد ينهش بنا

ممزقًا المنزل الذي كان ملاذنا، أفبالله على أمرك مازلت تُصِرّ أن تظلين هنا دون الرحيل معي إلى بلدا أخرى يجمع شملنا.

- آسفة لك عندما صرخت عليك، لكن والله كنت أعشق الشيخ وكأنه أبي، لكن رحل هو الآخر كما رحل أبي ولم يبقى إلا أنت، فبالله إبقى جانبي، فأنا فتاة تحركها الرياح كما تشتهي، فبالله كن معي.
- آية أنا أحبك، وأعدك أن أبقى حتى ينتهي عمري ويتوقف ألتهامي الأنفاس، أحبك إلى حد السماء، أحبك بطول البحر، أحبك كالقمر وسط النجوم والبواخر وسط السفن.
- وأنا كذلك منذ أن رأيتك وأنا أشعر وكأنك حررت روحك لتسكن داخلي.

قاطع كلامنا صوت الغارات التي تُقذف من حولنا، وصريخ الأمهات، المشهد مخيف لدرجة فقدان جزء من العقل لو رأيت أنهار الدماء الجارية، أطفال يتساقطون أرضًا، وشيوخ يقومون الصلاة في المساجد، فالحرب أذا دبت ببقعة أقامت قيامتها، وكيف لنا أن نبقى وسط الدماء، أوليست أرواحنا تعني لنا الكثير، فكيف نتركها في الهلاك، فإزدياد الحرب يشعل أفكاري المتلهبه في الهروب من البلاد، وكأن البقاء هنا أنك تلقي يداك في الهلاك، وهذا مخالف لقول الله تعالى{ ولا تُلقوا بأيديكم إلى التهلكة.

***